في الذكرى السنوية الحادية والعشرين لرحيل قيصر الجميل

سيرة في الحركة الفنية وأنوار بيروت

السفير 09/10/1979

نشرت الوكالة الوطنية للأنباء في ملحقها الثقافي، الصادر منذ فترة وجيزة، خبراً عن معرض سيقام، خلال تشرين الأول الجاري، للفنان الراحل قيصر الجميل، لمناسبة إحياء ذكراه، ولم توضح الوكالة، أي معلومات عن الموعد المحدد لمكان إقامته، أو حول منظمي المعرض، واكتفت بكتابة لمحة سريعة عن حياة الراحل وفنه.

وهذا يستوجب السؤال التالي:

«هل قررت الدولة تكريم المبدعين الكبار، (الراحلين على الأقل)، أم أن الخبر هو مجرد تكريم على صفحات الوكالة الوطنية فقط؟»

نأمل خيراً، بتحقيق فكرة المعرض، لاسيما بعد مرور الذكرى السنوية العشرين لرحيل قيصر الجميل، (1898 - 1958)، دون إقامة معرض تكريمي وإلقاء أضواء حول فنه ومواقفه التربوية الرائدة.

لوحة الدبكة اللبنانية

في الذكرى السنوية الثالثة لرحيل قيصر الجميل، كتب الفنان نقولا النمار، في العدد التاسع من مجلة الحكمة الشهرية، الصادر في شهر تشرين الأول سنة 1961، كتب يقول: "خواطر مؤلمة تحز بنفسي كلما ذكرت، أو ذكر أمامي اسم قيصر الجميل، إذ لم نر من الدولة أي بادرة تدل على أن لديها أي استعداد لعمل أي شيء، تقديراً لمن له الفضل الأكبر بخلق الحركة الفنية المعاصرة، بل لعمل أي شيء للمحافظة على مجموعة كبيرة من إنتاجه، تتبعثر هنا وهناك... كم مرة طالبنا وزارة الفنون الجميلة باستملاك بيته الريفي وجعله متحفاً لأعماله، وبسعر لا يوازي خمس ثمنه، فلم نلق أي صدى لمطلبنا، لأن الدولة منشغلة بما هو أسمى وأرفع من الفن الرفيع!!"

وتشاء الصدف أن الفنان عمر الأنسي، الذي كرمته بيروت، في صالة غرفة الصناعة والتجارة، خلال الموسم الثقافي الماضي، كتب كلمة رثاء في ذكرى رحيل قيصر الجميل - لمجلة الحكمة - جاء فيها: "عرفت قيصر الجميل في السنة 1922 عندما كنا ندرس الفن معاً على يد الفنان خليل الصليبي. وعدت فالتقيت به مرة ثانية في السنة 1927 حيث درسنا معاً في أكاديمية "كولوروس" في باريس، وهناك كنا نتردد معاً على المتاحف ونزور الأماكن الفنية. وكان من النادر أن نمضي يوم واحد دون أن نزور متحف "اللوفر" ومتحف "اللوكسمبورغ".. وقد تأثر قيصر بجو باريس، فظهر ذلك جلياً في ألوانه الداكنة الرمادية، حتى تحرر أخيراً وعاد إلى جو لبنان وإلى ألوانه الزاهية... كان له فضل بتأسيس الأكاديمية اللبنانية، مع ألكسي بطرس، حيث أصبح باستطاعة هواة الفن لأول مرة في لبنان، أن يدرسوه بطريقة منهجية منظمة.. ولكن عدم تقدير بلادنا للفن، جعل قيصر يكفر بالناس، ويلجأ إلى تأسيس مزرعة، ظناً منه أن ذلك سيحقق له ما يصبو إليه من الحرية والبحبوحة. ولكن المنية عاجلته، وجرت الرياح بما لا تشتهي. انصرف للتدريس أكثر من انصرافه للإنتاج ومع ذلك فإن أكثر الفنانين عندنا قد تتلمذوا عليه. ولكنه ترك لهم الحرية الكاملة

التي قادتهم إلى الفوضى الفنية فيما بعد. فكان هو المسؤول عما وقعوا فيه من شذوذ وإعوجاج. لأنهم انصرفوا إلى التقليد الأعمى وإلى ما يشبه الشعوذة. فاستوحوا الغرب وأغمضوا عيونهم عن جمالات هذا البلد الوافرة.

كان قيصر حساساً لطيف المعشر، وكان شغوفاً بتصوير العاريات لأنه كان يعجب بالجمال العاري، ظناً منه أن الجمال المقنع، هو جمال مشوه، وإن العري يفجر طاقات الجمال فيجعلها مشعة وموحية... وبصورة إجمالية أستطيع القول، إن قيصر الجميل رائد كبير من رواد الفن اللبناني، له على الجيل الطالع من الفنانين بيض الأيادي. ولذلك علينا جميعاً أن نقف في ذكراه وقفة خشوع واحترام، تقديراً لفضله وعرفاناً بجميله."

وفي عودة إلى الملف الوثائقي لحياة قيصر الجميل، نستعرض مع القراء هذا الحوار الذي أجراه الدكتور جميل جبر رئيس تحرير مجلة الحكمة عام 1956، لاستشفاف بعض النقاط الأساسية في فن الجميل.

*** كيف نشأت؟**

- كما ينشأ كل لبناني ولد في القرية، في الهواء الطلق، نقفز بين البطم والوزال، و "نفر" بين الدوالي نملأ السلال عنباً وتيناً صباح مساء. "نحوحي" حول الموقد، نفرك عيوننا الدامعة من دخان العفص والسنديان... وفي ظل البطمة الكبيرة على باب الكنيسة كان أبونا جريس يعلمنا الألف والطوبى، وفي داخل الكنيسة شتاء، وبعدها بثلاث سنوات في قرنة شهوان داخل ثوب اكليريكي أسود، ثم في صيدلية الجميل، تعرفت إلى المدينة وسمعت لأول مرة اسم الأخطل الصغير وطانيوس عبده. وفيها اكتشفني خليل الصليبي المصور الكبير، فكان أن تركت الأدوية والعقاقير والتحقت بفن التصوير.

*** ما هي الطريقة التي أتبعتها أولاً ثم اليوم؟**

- هي طريقة الصليبي، أي بين التأثرية والكلاسيكية، ثم هجرتها في باريس إلى بساطة في الألوان ومتانة في الرسم، أما اليوم، فإني ضائع في خضم لا مقر له ولا شاطئ، فالألوان والأشكال كلها على راحتي، وشعوري، يسيّر يدي.

أما الطريقة؟... فلم أتبع طريقة واحدة، بل أتركها حرة حسب الموضوع ووحي الساعة.

*** من هم الفنانون الذين أثروا فيك؟**

- ثلاثة فنانين أثروا في حياتي الفنية، الصليبي أولاً، ثم رينوار وسيزان، استعبدني الصليبي ثلاث أو أربع سنوات، ولم أخلص

لوحة آنية الزهور

من سيطرة رينوار إلا منذ زمن قصير، أما سيزان، فقد اكتشفته عندما بعدت عنه وهو لا يزال يستأثر بإعجابي.

*** ما أثر المرأة في تصويرك، وفي حياتك؟**

- "أكتفي بالرد على هذا بجملة واحدة، أنا مصور المرأة ففي بشرتها ما ليس في الزهر والثمر.

أما أثرها في تصويري فلن أدلك عليه، أما في حياتي فلست أدري".

*** ما رأيك في الفن الحديث؟**

- الفن الحديث، فيه الرائع والمبتذل، يريد بعضهم أن يفصل الفن عن العقل، وأنا آبى أن ينفصل عقلي عن يدي، لعله نقص في العبقرية، أنا لا أنكر ذلك، ويريدون أن يكون الفن الأصيل وقفاً على المرضى والمعتوهين، لأن تولوز لوتريك كان سكيراً، وفان غوغ كان يصاب بنوبات جنون.. إن تولوز لوتريك لم يصور عندما كان يسكر، بل كان ينتهي في بيوت الدعارة. وفان غوغ، كان عندما يحس بنوبة الجنون، كان يترك فرشاته قبل أن يمزق ما صنعه في ساعات المرض، ولا يرجع إليها إلا بعد استرجاع هدوئه، يجب أن ينظم العقل اللوحة، ثم يستسلم إلى اللاوعي في تحقيقها، أي أن تشترك القوى العقلية والقوى الجمالية في تكوين الرائعة حتى يكتب لها الخلود.

*** ما رأيك في مستقبل الفن في لبنان؟**

- المستقبل للشباب، وهو مستقبل الفن، إذا ساندت

لوحة مصرع أدونيس

الفنانين إدارة بناءة رصينة، موجهة، خيرة، بميزانية كافية نكفل للفنانين بعض الطمأنينة، وتنقلات في الخارج، وتبادل معارض مع فناني العالم، كانوا البناء الضخم الذي وضعنا له حجر الأساس.

*** ما رأيك بآثار جبران التصويرية؟**

- إنها توازي روعة أدبه إن لم أقل تفوقها فهو أكبر كبارنا وواحد من كبار المزينين في العالم... أراد جبران أن ينتزع أشخاصه من التراب فاحاطهم بهذه الهالة الغائمة التي تذكر بسماء لبنان النقية، أشكاله وأنواره تتآلف تآلفاً عجيباً. تطوق الأخت أختها بزندها فتمحي اليد مع الوجه بظل شعر لا لون له.. كل أم مريم، وكل طفل يسوع. يد ترتعش لمس الجسد الطري الناعم، ويدان تطوقان العنق بنشوة حب عميق، شفاه تحب صامتة، وعيون مطبقة على فكرة هي الضمير.حرام أن يدفن فن جبران في هذه الزرائب، إن مركزه هنا في العاصمة، ولوحاته وتصاويره يجب أن تكون نواة المتحف الحديث. إن الذي ملأ اسمه العالم، نضن عليه نحن بمأوى في عاصمتنا.. حرام أن نبخل على جبران ونحن ملوك.

خلال شهر تشرين الأول الجاري، تمر الذكرى السنوية الحادية والعشرون لرحيل قيصر الجميل دون تكريم، فهل يتذكره أصدقاؤه وتلاميذه وعشاق فنه، لأن موت الفنان الحقيقي يكمن في ضياع نتاجه، إنه العاشق المتيم بأنوار الطبيعة الخلابة، ومصور وقائع التاريخ اللبناني (صاحب جدارية معركة عنجر)، وأبرز مؤسسي الأكاديمية اللبنانية وجمعية الفنانين اللبنانيين (انتخب أول رئيس لها عام 1957، أي قبل رحيله بعام واحد). وأول مشجع لظهور الحرية التعبيرية في التشكيل اللبناني الحديث.. فهل سيبقى هذا الرائد كأمثاله من الرواد في العتمة ودون تاريخ، وإلى متى؟